

محول: أدب الطفل والصبغة النفسية

عنوان المداخلة: أدب الطفل وإستراتيجية تحقق الأثر عند الطفل العربي

د/ ربيعة حنيش المركز الجامعي تيبازة

ملخص:

يُقصد بمفهوم أدب الطفل بأنه الأدب الذي يُخصص للصغار، فيفيدهم من خلال نقل المعلومة بقلب من المتعة والتسلية، وضمن مفهوم أدب الطفل: فهو كل ما كُتب وصُوّر في إطار مواضيع وأهداف تعليمية كُتبت من أجل تزويده للطفل.

وهو: نوع من الفن الأدبي الذي يشمل القصص والكتب والمجلات والقصائد المؤلفة بشكل خاص للأطفال.

من أهم ما يميز أدب الأطفال أنه يتمثل في كشف جوانب معرفية للطفل وإضاءتها، وتقديم مادة ما بمستوى أدبي مع التركيز على كيفية عرضها، وكذلك في التوجيه والإيحاء من خلال النص بأسلوب ميسر.

إنه يعمد إلى إشباع حب الاستطلاع لدى الطفل، وإلى تنمية خياله، وإلى مخاطبته حول طبيعة الإنسان والإنسانية عامة وإنجازاتها، وصولاً إلى استكشاف العوالم المختلفة حوله. هذا الأدب عليه أن يوفر المتعة والفهم ومحاولة ترك الأثر - أثر ما في نفسية الطفل وفي أفعاله.

هذا ما تهتم به نظرية التلقي، باعتبار الطفل متلق مميز للنصوص الموجهة إليه بالتحديد.

فكيف يتحقق أفق الانتظار عنده، وما مدى تمكن أدب الطفل من تحقيق الأثر لدى هذه

الفئة من المتلقين؟

إن أدب الطفل كغيره من الآداب الموجهة للمتلقين مر بمراحل، تغيرت فيه أساليبه وتطورت رغبة من الأدباء في تحسين آلياته وتحقيق أهدافه.

مراحل تطور أدب الطفل:

يرى الدارسون أن أدب الطفل مرّ بثلاثة أطوار، هي:

الطور الأول:

يبدأ من 1697م، وهو تاريخ صدور "حكاية أمي الإوزة" التي كتبها الشاعر الفرنسي تشالز بيرو (1628 - 1703م) باسم مستعار أول الأمر. لقد ساهم هذا الكتاب في بعث نشاط أدبي ملحوظ في جميع أنحاء أوروبا، ارتكز على الموروث الشعبي للقارة العجوز وتقديمه للأطفال.

عرفت هذه المرحلة حدثاً أدبياً مهماً هو ترجمة أنطوان جالان (1646 - 1715م) لحكايات "ألف ليلة وليلة" التي أصبحت -في ما بعد- معلماً بارزاً في الإبداع الأدبي، أثر في كثيرٍ ممّا كُتب في أدب الطفل في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. ثم أخذت الكتابة في أدب الطفل منحى أكثر نضجاً مع ظهور كتاب "إميل" لجان جاك روسو، الذي كان أول من درس الطفل كإنسان حر.

في هذه الفترة أيضاً ظهر كتّاب كبار تركوا بصمتهم في الكتابة للطفل، منهم الأخوان الألمانيان يعقوب غريم (1785 - 1863م) وفلهلم غريم (1786 - 1859م) اللذان كتبا "حكايات الأطفال والبيوت"، التي تحتوي على القصة العالمية "بيضاء الثلج"، والإنجليزي لويس كارول (1832 - 1898م) الذي نشر قصته "أليس في بلاد العجائب" والدانماركي هانز أندرسون (1865 - 1875م) الذي كتب قصة "البطة القبيحة".

الطور الثاني:

هو الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى (1914 - 1918م) وتميزت بإنجاز دراسات علمية ممنهجة حول الطفل ككيان مستقل، فألفت كتبٌ عن سيكولوجيا الطفل من خلال دراسة سلوكه وملاحظة عاداته ومراعاة إمكاناته وقدراته. استفاد أدباء تلك الفترة من هذه الدراسات، فطوّروا أساليبهم وموضوعاتهم وطريقة طرحهم للنصوص الموجهة للأطفال كي تتماشى مع متطلبات الطفل ورغباته.

الطور الثالث:

يبدأ هذا الطور بنهاية الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945م) إذ يعتبره الدارسون في الغرب العصر الذهبي لأدب الطفل على مر الزمن، فقد طُبعتْ خلاله الكتب على نطاق واسعٍ جداً، ونشرت مجلات موجهة للطفل خاصة، وجُسدت المسرحيات وصُنعت الأفلام. كما ظهرت المكتبات ودور النشر المختصة، وأدرج أدب الطفل كموضوع له مكانه في الدراسات العليا في مختلف الجامعات الكبرى، ما أنعش الحركة النقدية التي أسست قواعد هذا الفن وثمنت الجهود المبذولة وصححت المسار المسلوك.

1 لغة أدب الطفل:

يعتبر أدب الأطفال نوعٌ من الفن الأدبي يعتمد بماهيته على أساليب من النثر والشعر، مؤلفةً للأطفال والأولاد دون عمر المراهقة أي في المرحلة الثانية التي تبدأ من السنة السادسة إلى نهاية السنة العاشرة، إذ تكثر لدى الطّفّل الأسئلة حول الذات والآخر، وتتسع قدراته العقلية، ويبدأ في التحليل والتفكير، واتخاذ المواقف.¹

ويذكر غوركي بأهميّة الاعتماد على العلم والعمل في المجتمع الحديث، وبأنّ المهمّة تنحصر في وضع العلم في خدمة خيال الطّفّل وفي تعويد الصغار التفكير في المستقبل،

¹ - يوسف مارون (2011): أدب الأطفال بين النظرية والتطبيق. المؤسسة الحديثة للكتاب. لبنان. ط1. ص 37.

ويقول إنّه في وسعنا التحدّث إلى الصغار عن الأمور الجديّة بلغة جذابة ومقبولة، وبعيدة عن الأسلوب التقريريّ التعليمي.²

يتوجّب على الكاتب في أدب الأطفال استخدام الأسلوب المحبّب لاسيما أنّ هذا الأدب من الفنون الصعبة، ويجب أن يتّسم بالبساطة في الكتابة واللفظ والمعنى، ومن ههنا تُسيطر معايير أساسية على أدب الطّفولة، وبخاصّة في ما يتعلّق بالنسيج القصصيّ، والسرد الذي يُشكّل العمود الفقري في القصّ، وهو عنصرٌ أساسيٌّ لا يمكن إهماله إذ عليه تُبنى ركائز البناء القصصيّ.

لذلك لا يكفي أن يسرد الراوي أحداثاً، إنّما المهمّ كيف يسردها، وكيف يضعها في نقاطٍ مفصليّة من البناء، أي من عناصر المسرى القصصيّ نفسه (الوضع الأوّليّ، العنصر المبدّل، تطوّر الأحداث، العقدة، الحلّ) هذا ويستوجب استخدام الجمل الوصفيّة أيضاً، لما للوصف من دورٍ في نقل هيئة الحدث والإطار المكانيّ والزّمانيّ، وكيفية توزيع الحدث وخلفياته المنطقيّة أو النفسيّة في تتابعٍ مُحكّم يجذب الطّفّل إلى القراءة.³

2 دور أدب الطّفّل في تنمية الثقافة:

أدب الأطفال سبيلٌ لا غنى عنه لتسريع عمليّة التّثقيف والاجتماعيّة ممّا يتطلّب المزيد من الجهد لتأهيل أدب الأطفال وتدعيمه في التّربية والمجتمع وفي مختلف

² - نيكولاس تاكر (1990): الطّفّل والكتاب دراسة أدبيّة ونفسية، تر مها حسن بحبوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا. ص 25 - 27.

³ - سهام حرب: نحو معايير جودة لأدب الأطفال في لبنان والعالم العربي، ص 390، 391.

المؤسّسات، وله طابعه التّربويّ والقوميّ والشّعريّ والإيديولوجيّ لمواجهة الغزو النّفافيّ والإعلاميّ الاستعماريّ⁴

ويتفق التربويون على أن أدب الطفل أساس لبناء شخصيته وتنمية إحساسه بالجمال وتغذية خياله بكل ما يشبع شغفه المتزايد للمعرفة ومواكبة تطلعه الدائم للتعرف على المزيد والمزيد مما يجري في العالم المحيط به.

أدب الطفل رسالة تربوية لا يستهان بها في بناء علاقة الطفل الإيجابية بالبيئة المحيطة به وترسيخ القيم الأساسية اللازمة لبناء شخصيته السوية وأشير هنا إلى أهمية أن يلعب دورا مؤثرا في إدراك الطفل للغته العربية وتذوقه لمعانيها ومفرداتها وقدرته على التعبير عن أفكاره ومشاعره من خلالها.

3 قصص الأطفال ودورها في حياة الطفل:

تلعب القصص دورا مهما في توعية الطفل وتوجيهه، خاصة إذا جاءت وفق أسلوب يمتعه، وذلك باختيار الشخصيات والأسماء المناسبة لكل فئة عمرية، فالحكاية تجذب الطفل وتزرع فيه القيم إذا أحسنا استخدامها واختيار الوقت المناسب لتقديمها له.

إنّ هذه الحكايات هي التي تجعل الطّفل يعرف بأنّه وُلد في عالمٍ فيه الموت والحياة والخير والشّرّ والمغامرة والبطولة، وهذا ما لا يستطيع الطّفل معرفته من خلال تجربته الخاصّة، كما أنّ قصص الأطفال في مرحلة الطّفولة تُصبح انعكاساً لعمليّة تفحص الصّغار لمشاعرهم الداخليّة ووعيهم المتزايد بوجود مشاعر مختلطة ومشوّشة أحيانا، وهذا كلّه لا ينفى أثر التّشويق الذي تقدّمه حبكة تلك القصص والروايات، وأثر الأسلوب الذي يتمّ به إرضاء فُصول الطّفل.⁵

⁴ - علي الحديدي (2010): في أدب الأطفال. مكتبة الأنجلو المصريّة. القاهرة. ط10، ص 91، 92.

⁵ - نيكولاس تاكر (1990): الطّفل والكتاب دراسة أدبيّة ونفسية. ترجمة مها حسن بحبوح. سوريا. ص 22.

فالقصة تأخذ الأطفال إلى عوالم سحرية ذات شخصيات خيالية، إلى أراضٍ بعيدة مع حيوانات وعادات جديدة، أو تبقّهم بالقرب من المنزل مع حكايات الجيران والأصدقاء أو رحلة إلى طبيب الأسنان، أو قد تكون رحلة إلى الفضاء الخارجي أو جولة مع المخلوقات تحت الماء.

وهي لا تقتصر على ذلك بطبيعة الحال، فقراءة القصص للطفل تساعده في سن مبكرة على تطوير مهاراته التواصلية وإثراء قاموسه اللغوي، فقد أثبتت الدراسات أن القراءة اليومية للطفل، بدءاً من مرحلة الطفولة المبكرة، تُساعد على اكتساب اللغة ومهارات القراءة والكتابة، وذلك لأن القراءة للطفل في الأشهر الأولى تُحفز جزءاً من الدماغ يسمح له بفهم معنى اللغة، كما أن القراءة للطفل تعد إحدى أكثر الطرق فاعلية في بناء الروابط العصبية "اللغوية" في دماغه المتنامي، وكذلك بناء قاعدة قوية لتطوره المعرفي .

وتعد قراءة القصة للطفل في سن مبكرة من العوامل المساعدة في النمو اللغوي للطفل، وفي تكوين شخصيته والوصول بها إلى درجة من النمو والنضج، وتسمح للطفل أن يعيش حياته مستمتعاً بها ومتفاعلاً مع البيئة التي يعيش فيها بمدخلاتها المتعددة.⁶

تساهم القصة في مساندة الطفل في التعلم واكتساب القيم الأخلاقية، وتحث القصة مكانة متميزة عند الأطفال وتفوق الأنواع الأدبية الأخرى بما تمتلكه من قوة تأثير ومنتعة لا يملكها غيرها من الأجناس الأدبية الأخرى، إن هي القصة تلك الحكاية التي تتضمن غرضاً تربوياً أو فنياً أو أخلاقياً أو علمياً أو لغوياً أو ترويحياً والتي تعد وسيلة من وسائل الثقافات والمعارف والعلوم.

⁶ - أبو معال، عبد الفتاح، أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتنقيفهم، عمان، دار الشروق، 2005، (ط 1)،

القصة من أشد ألوان الأدب تأثيراً في نفوس الأطفال إذا تضمنت تلك المثيرات الباعثة على تشكيل سلوكهم وتكوين شخصياتهم، وتؤثر القصة نفوس الأطفال من كل ناحية من نواحي الحياة وتترك أثراً واضحاً على الجانب العقلي والجانب الاجتماعي والجانب النفسي، فلأطفال القدرات عقلية وجسمية ونفسية واجتماعية ولغوية خاصة بهم، ومادامت لهم أنماط سلوك متميزة، فهم يحسون ويدركون ويتخيلون ويفكرون في دائرة ليست مجرد دائرة مصغرة من تلك التي يحس ويدرك ويتخيل ويفكر فيها الراشدون، لذا فإن ثقافة الأطفال ليست مجرد تبسيط أو تصغير للثقافة العامة في المجتمع، بل هي ذات خصوصية في كل عناصرها وانتظامها البنائي.⁷

وللقصة دور فعال وإيجابي في النمو الانفعالي للطفل، فمن خلالها ينفس الطفل عن مشاعره المكبوتة وانفعالاته الضارة، ويخفف من حدة القلق والتوتر، وبها يدخل السرور والبهجة على نفسه ويتعلم المشاركة الوجدانية كما أنها تنمي مشاعر العطف والحنان عند الطفل من خلال التعاطف مع الضعفاء في أحداث القصة والإحساس بمعاناته.

تساعد القصة في العلاج الطبي والنفسي للأطفال كما تستخدم القصة كأداة مهمة في علاج الاكتئاب والاضطراب والمخاوف المرضية.

كما تحتوي القصة على اتجاهات اجتماعية، فهي تعمل على غرس القيم النبيلة عند الطفل وترسيخ القيم الفاضلة وحب الخير، فالقصة من خلال كلماتها ومضمونها تحتوي على أهداف اجتماعية تبرز للطفل القيم الحميدة وتشعره بالانتماء لمجتمعه، كما أنها تنمي العادات الاجتماعية السليمة من كرم وتعاون وحب وإيثار وتضحية وصدق ووفاء، وتكسبه مهارات التواصل مع الآخرين.

⁷ - فاضل الكعبي (2012): كيف نقرأ أدب الأطفال. الأردن. ط1. ص.

دور القصة في زرع القيم الأخلاقية عند الطفل:

تلعب القصة دور مهم للغاية في بناء المبادئ الأخلاقية للطفل ، والجدير بالذكر بأن القصة لها دور كبير في التأثير على الطفل لأنها تجذب انتباهه، فالقصة تسكن في خيال الطفل، وقد تدخل السرور والسعادة إليه وقد تكسبه عدد من القيم التي لا يعرفها، كما تدفعه للتعاون مع باقي زملاءه، وتبني فيه عدد من القيم والمبادئ الصحيحة، نظرا لأنها تسرد بصورة مسلية وشيقة.

وفي هذا يقول إبراهيم يوسف محمد محمود : للقصة أثر إيجابي في تنمية القيم لدى الأطفال، ويرجع ذلك الأثر إلى حب الأطفال للقصص، وهو أمر شائع ومعروف، حيث تتمشى مع خصائصهم، وترضي دوافعهم، وتشبع حاجاتهم، وتخفف من توتراتهم، وتعود بهم إلى حالة التوازن النفسي وتساعدهم على التعرف على الحياة بأسلوب شيق، ولهذا اعتبرت القصة من الوسائل ذات الفاعلية في تكوين شخصية الطفل بما تهيئه من فرص للنمو في مختلف الجوانب العقلية، والنفسية، والوجدانية، والقصة بما تحتويه من مضمون خلقي أو اجتماعي توجه الأطفال توجيهها غير مباشر تقبله النفس ولا تمله الأمر الذي ينظم تفكيرهم ويزودهم بالمعلومات والقيم الاجتماعية والأخلاقية، ويصلهم بركب الثقافة والحضارة في إطار مشوق ممتع، وأسلوب سهل يقرب المفاهيم المجردة التي تهتم بها التربية⁸.

إنّ أدب الطفل بوصفه ظاهرة إبداعية؛ بات ضرورة ملحة، خاصة في عصر لم تعد فيه الأسرة المبرمج الوحيد لشخصية الطفل وفكره، فإذا كان أدب الطفل في الغرب قد بلغ الغاية، نظرية وتطبيقا، فكرة وتجسيدا، فإنّه في عالمنا العربي يحتاج إلى دفعة قوية، سواء ما تعلّق

⁸ - إبراهيم يوسف محمد محمود: أثر التفاعل بين نمط عرض السلوك الأخلاقي (الإيجابي - السلبي - الإيجابي والسلبي) للشخصية بالقصة الالكترونية وإستراتيجية التعلم (لعب الدور - المناقشة) على تنمية بعض القيم الأخلاقية والاحتفاظ بها لدى عينة من رياض الأطفال ، ص719.

كـمه بالإبداع الأدبي أو الإخراج الفنّي أو التجسيد الدرامي للنصوص، لهذا تبقى دراسة أدب الطفل تفتقر إلى جهد إضافي واهتمام أكبر وعناية أكثر، لأنه أدب لا يقل أهمية عن أدب الكبار، بل قد يفوقه ، ولا ننكر الجهود المبذولة مؤخرا من أجل الصعود بأدب الطفل درجة مرموقة، وقد ساهمت مواقع التواصل الاجتماعي في نشر القصص المصورة، بهدف جذب الطفل إلى هذا النوع من التسلية حتى تعطيه مكانه الخاص في العالم الإلكتروني، وبهذا تكون له مساحته الخاصة التي تغنيه عن مساحة الكبار التي قد تجذبه باعتبارها مظهرا من مظاهر التسلية البراقة، ونذكر ما منها سلسلة الحكايات الهادفة والتي تحاول تعليم الطفل مبادئ الصلاة والصيام ومجموعة من القيم الأخلاقية بطريقة سرديّة ممتعة، مع صور ملونة مثل النموذج التالي:





👩‍🏫 قالت نور : في رمضان نكثرُ من قراءة القرآن فنأخذ حسنات كثيرة أكثر من أي وقت

👦 قال إبراهيم : في رمضان نتصدق على المحتاجين لأننا عندما نجوع ونعطش نشعرُ بشعورهم وتصبح قلوبنا رقيقة ونتقرب إلى الله بالتصدق عليهم بالطعام والشراب واللباس والمال ..



قالت المعلمة : أنا فخورةٌ جداً بكم يا أحبائي وأتمنى أن تغتنموا كل لحظة في رمضان لأنه فرصة عظيمة للتقرب من الله عزّ وجلّ ليغفر لنا ذنوبنا ويدخلنا الجنة التي أعدّها لعباده المتّقين أسأل أن نكون جميعنا منهم ❤️



هذا مثال فقط عن القصص التي تنشر عبر مواقع التواصل الاجتماعي، والتي نرجو أن تكثر حتى نجنب أطفالنا الولوج في عوالم أكبر من عقولهم، فتأثر سلبا على تربيتهم وأخلاقهم.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1 يوسف مارون (2011): أدب الأطفال بين النظرية والتطبيق. المؤسسة الحديثة للكتاب. لبنان. ط1.
- 2 نيكولاس تاكر (1990): الطفل والكتاب دراسة أدبية ونفسية، تر مها حسن بحبوح، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا.
- 3 سهام حرب: نحو معايير جودة لأدب الأطفال في لبنان والعالم العربي.
- 4 علي الحديدي (2010): في أدب الأطفال. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ط10.
- 5 أبو معال ، عبد الفتاح، أدب الأطفال وأساليب تربيتهم وتعليمهم وتنقيفهم، عمان، دار الشروق، 2005، (ط1).
- 6 فاضل الكعبي (2012): كيف نقرأ أدب الأطفال. الأردن. ط1.
- 7 إبراهيم يوسف محمد محمود: أثر التفاعل بين نمط عرض السلوك الأخلاقي (الإيجابي - السلبي - الإيجابي والسلبي) للشخصية بالقصة الالكترونية وإستراتيجية التعلم (لعب الدور - المناقشة) على تنمية بعض القيم الأخلاقية والاحتفاظ بها لدى عينة من رياض الأطفال.